

المحاضرة الثالثة: جمع القرآن وترتيبه

من المعلوم أنّ القرآن الكريم لم يُنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم دفعة واحدة، وإنما نُزل عليه مُنجمًا في ثلاثة وعشرين عامًا، وخلال كل هذه المدّة من حياة نبينا صلى الله عليه وسلّم كان أمين الوحي جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن كلما حدثت حادثة أو نزلت نازلة، بل ويشرع للأمة حتى بغير مناسبة أو حادثة أحيانًا، فحفظ النبي الكريم ﷺ القرآن وحفظه لصحابته الكرام رضي الله عنهم في صدورهم، كما أنه كان يأمر كتاب الوحي بكتابته وجمعه فيما يتاح لهم من وسائل متعددة. فكان الجمع إذن في الصدور حفظًا وفي السطور كتابة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾¹.

* معنوا الجمع *

يراد من إطلاق كلمة الجمع على القرآن الكريم معنيان:

المعنى الأول: جمعه بمعنى الحفظ في الصدور، وهذا المعنى ورد في قوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾² إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ³.

المعنى الثاني: جمعه بمعنى كتابته في السطور، أي الصحائف التي تضم السورة والآيات جميعها.

* مراحل جمع القرآن *

المرحلة الأولى: الجمع الأول في عهد الرسول ﷺ:

1- حفظه في الصدور:

حفظ النبي ﷺ للقرآن الكريم: كان النبي ﷺ يحفظ القرآن ويتلوه عن ظهر قلب لا سيما في الليل، حتى إنه ليقرأ في الركعة الواحدة العدد من السور الطوال. ولزيادة التثبيت كان جبريل يعارضه القرآن كذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْحَيْرِ، وَأَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، لِأَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، حَتَّى يَنْسَلِخَ يَعْزُضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ...﴾³، وقال أبو هريرة: ﴿كَانَ يَعْزُضُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَّضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ...﴾⁴.

حفظ الصحابة للقرآن الكريم: توفرت للصحابة العوامل التي تجعلهم قادرين على حفظ القرآن وتسهّل عليهم هذه المهمة،

ومن تلك العوامل:

- 1- قوة ذاكرتهم الفذة التي عرفوا واشتهروا بها، حتى كان الواحد منهم يحفظ القصيدة من الشعر حين يسمعها للوهلة الأولى.
- 2- نزول القرآن منجمًا في ثلاث وعشرين سنة.

¹ سورة: الحجر، الآية: 9.

² سورة: القيامة، الآيتان: 16-17.

³ رواه البخاري.

⁴ رواه البخاري.

3- لزوم قراءة شيء من القرآن في الصلوات.

4- وجوب العمل بالقرآن، فقد كان هو ينبوع عقيدتهم وعبادتهم، ووعظهم وتذكيرهم.

5- حض النبي ﷺ على قراءة القرآن، والترغيب بما أُعد للقارئ من الثواب والأجر العظيم.

6- تعاهد النبي ﷺ الصحابة بتعليم القرآن: فكان الصحابة تلامذةً للنبي ﷺ يتعلمون منه القرآن، وكان النبي ﷺ شيخهم، فإذا أسلم أهل أفق أو قبيلة أرسل إليهم من القراء من يعلمهم القرآن، وإن كان في المدينة ضمّه إلى حلق التعليم في جامعة القرآن النبوية.

2- حفظه في السطور:

وهو لون من الحفظ يدوم مع الزمان، لا يذهب بذهاب الإنسان، فلا بد أن يتحقق ما تكفل الله بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾⁵، ولقد اعتنى النبي ﷺ بكتابة القرآن عناية بالغة جداً، فكان كلما نزل عليه شيء منه دعا الكتاب - منهم: علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان- فأملاه عليهم، فكتبوه على ما يجدونه من أدوات الكتابة حينئذ مثل: الرقاع، اللخاف، والأكتاف، والعسب⁶. وقد حصر النبي ﷺ جهد هؤلاء الكتاب في كتابة القرآن فمنعهم من كتابة غيره إلا في ظروف خاصة أو لبعض أناس مخصوصين.

فتحقق بذلك توفر طاقة كبيرة لكتابة القرآن وترتيبه، كما أخرج الحاكم عن أنس رضي الله عنه: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن في الرقاع... ومقصود هذا الحديث فيما يظهر أن المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم.

المرحلة الثانية: الجمع الثاني في عهد سيدنا أبي بكر رضي الله عنه.

عن زيد بن ثابت قال: أرسل إليّ أبو بكر، مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحرّ بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فأجمعه، - فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن- قلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟! قال: والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر.

⁵ سورة: الحجر، الآية: 9.

6 الرقاع: جمع رُقعة، وهي التي يكتب فيها، وتكون من جلد أو نحوه.

اللخاف: جمع لُخْفَة، وهي صفائح الحجارة البيض الرقاق، فيها عرض ودقة، وقيل هي الخزف يصنع من الطين المشوي. وقد فسرها بعض الرواة بالحجارة وبعضهم بالخزف.

الأكتاف: جمع كَيْف، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدواب، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم.

العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص، ويكتبون في الطرف العريض، وقيل العسيب طرف الجريدة العريض الذي لم ينبت عليه الخوص، والذي ينبت عليه الخوص هو السعف.

اللخاف: جمع لُخْفَة، وهي صفائح الحجارة البيض الرقاق، فيها عرض ودقة، وقيل هي الخزف يصنع من الطين المشوي. وقد فسرها بعض الرواة بالحجارة وبعضهم بالخزف.

فتتبع القرآن أجمعه من العُصْب و اللِّخَاف و صدور الرجال، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، ولم أجدها مع غيره: : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ...﴾⁷ حتى خاتمة براءة.. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه.

وبهذا جمعت نسخة المصحف بأدق توثق ومحافظة، وأودعت لدى الخليفة لتكون إماماً تواجه الأمة به ما يحدث في المستقبل، ولم يبق الأمر موكلاً إلى النسخ التي بين أيدي كتّاب الوحي، أو إلى حفظ الحفاظ وحدهم.

وقد اعتمد الصحابة كلهم وبالإجماع القطعي هذا العمل وهذا المصحف الذي جمعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وتتابع عليه الخلفاء الراشدون كلهم، والمسلمون كلهم من بعده، وسجلوها لأبي بكر الصديق منقبة فاضلة عظيمة من مناقبه وفضائله. وحسبنا في ذلك ما ثبت عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله.

منهج زيد بن ثابت في جمع القرآن:

تبع زيد في جمع القرآن من العُصْب و اللِّخَاف و صدور الرجال، فكان منهجه أن يسمع من الرجال ثم يعرض ما سمعه على ما كان مجموعاً في العُصْب والأكتاف، فكان رضي الله عنه لا يكتفي بالسمع فقط دون الرجوع إلى الكتابة، وكذلك من منهجه في جمع القرآن أنه لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد عليه شاهدان من العدول الثقات، قال أبو بكر لعمر وزيد: ﴿أقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه﴾⁸، وهذا زيادة في التحفظ، مع أن زيدا كان من حفظة القرآن.

وبهذا التثبت والتحفظ تم جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق في مصحف واحد مرتب الآيات والسور.

المرحلة الثالثة: الجمع الثالث في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا في اليهود والنصارى. فأرسل إلى حفصة: أن أرسلني إلينا الصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنه إنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يحرق.

⁷ سورة: التوبة، الآيتان 128-129.

⁸ ابن أبي داود في المصاحف، كنز العمال.

السبب الدافع لهذا العمل الذي قام به عثمان وهو اختلاف الناس في وجوه قراءة القرآن حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك ببعضهم إلى تخطئة بعض، فحُشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخت تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش.

✽ رسم المصحف العثماني والآراء فيه ✽

المراد برسم القرآن هنا كيفية كتابة الحروف والكلمات في المصحف على الطريقة التي كتبت عليها في المصاحف التي أمر عثمان اللجنة الرباعية فكتبها ووزعتها في الأمصار.

ويطلق عليه: رسم المصحف، ومرسوم الخط.

الآراء فيه:

الرأي الأول: أن الرسم العثماني ليس توقيفاً عن النبي ﷺ، ولكنه اصطلاح ارتضاه عثمان وتلقته الأمة بالقبول، فيجب التزامه والأخذ به، ولا يجوز مخالفته.

الرأي الثاني: أن رسم المصحف اصطلاح لا توقيفي، وعليه فيجوز مخالفته.

الرأي الثالث: أنه توقيفي لا يجوز مخالفته، وهو مذهب الجمهور.

واستدلوا بأن النبي ﷺ كان له كُتاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن كله بهذا الرسم، وقد أقرهم الرسول ﷺ على كتابتهم وقضى عهده ﷺ والقرآن على هذه الكتابة لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل.

أقوال الفقهاء في الرسم العثماني: جمهور العلماء ذهبوا إلى منع كتابة المصحف بما استحدثت الناس من قواعد الإملاء، للمحافظة على نقل المصحف بالكتابة على الرسم نفسه الذي كتبه الصحابة.

- وقد صرح الإمام أحمد فيه بالتحريم فقال: تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في ياء أو واو أو ألف أو غير ذلك.

- وسئل الإمام مالك: هل تكتب المصحف على ما أخذته الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتابة الأولى.

- وجاء في الفقه الشافعي: إن رسم المصحف سنة متبعة.

- وجاء في الفقه الحنفي: أنه ينبغي ألا يكتب بغير الرسم العثماني.

- وقال الإمام أبو عمرو الداني: ولا يخالف له من علماء الأمة.

وهكذا اتخذت الأمة الإسلامية الرسم العثماني سنة متبعة إلى عصرنا هذا، كما قال البيهقي في "شعب الإيمان": واتباع حروف المصاحف عندنا كالسنن القائمة التي لا يجوز لأحد أن يتعدها.

وكان ذلك للمبالغة في المحافظة والاحتياط على نص القرآن، حتى في مسألة شكلية، هي كيفية رسمه.

لكن استثنوا من ذلك نقط المصاحف وتشكيلها، لتمييز الحروف والحركات، فأجازوا ذلك بعد اختلاف في الصدر الأول عليه، وذلك لما اضطروا إلى ذلك لتلافي الأخطاء التي شاعت بسبب اختلاط العرب بالعجم.

✿ تفسير الرسم العثماني ✿

1- كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل اعتماداً على السليقة العربية التي لا تحتاج إلى مثل هذه النقط والتشكيلات، وظلت هكذا حتى دخلت العجمة بكثرة الاختلاط، وتطرق اللحن إلى اللسان العربي، عندئذ أحسَّ أولوا الأمر بضرورة تحسين كتابة المصاحف بالتنقيط والشكل والحركات مما يساعد على القراءة الصحيحة.

2- من شكل المصحف:

أ- اختلف العلماء في ذلك، منهم من قال: **أبو الأسود الدؤلي** الذي ينسب إليه وضع ضوابط اللغة العربية بأمر من سيدنا علي بن أبي طالب. يروي أنه سمع قارئاً يجر اللام من رسوله في قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ...﴾⁹ ، فغير المعنى، ففزع لهذا اللحن وقال: عز الله وجل أن يبرأ من رسوله، فعندئذ قام بوضع ضوابط التشكيل حفاظاً عليه من اللحن.

ب- ومن العلماء من قال: أول من شكل المصحف: **الحسن البصري**، و**يحيى بن يعمر**، و**نصر بن عاصم الليثي** بأمر من **الحجاج**.
3- تدرج تحسين رسم المصحف: كان الشكل في الصدر الأول نقطاً، فالفتحة نقطة على أول الحرف، والضممة نقطة على آخره، والكسرة نقطة تحت أول الحرف، ثم تدرج، فأصبحت الفتحة شكلية مستطيلة فوق الحرف، والكسرة تحته، والضممة واواً صغيرة فوقه، ثم بعد ذلك مر المصحف في طور التجديد والتحسين على مر العصور حتى استقر على هذا الشكل الذي هو عليه الآن من الخطوط الجميلة الواضحة، وابتكار العلامات المميزة، والاصطلاحات المفيدة، فجزى الله من سبقونا في خدمة قرآن ربنا خير جزاء.

✿ ترتيب آيات القرآن وسوره ✿

1- تعريف الآية:

لغة: أصلها بمعنى العلامة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾¹⁰.
اصطلاحاً: فهي قرآن مركب من جمل ولو تقديراً، ذو مبدأ و مقطع، مندرج من سورة.

2- تعريف السورة:

لغة: من سور المدينة، أو من السورة بمعنى المرتبة والمنزلة الرفيعة.

اصطلاحاً: قرآن يشمل على آي ذوات فاتحة وخاتمة . وأقلها ثلاث آيات.

3- حكمة تقسيم القرآن إلى سور وآيات:

منها: أن القارئ إذا ختم سورة أو جزءاً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله.

ومنها: أن الحافظ إذا حدَّق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة، فيعظم عنده ما حفظه، ومنه حديث أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلَّ فينا.

4- مصدر ترتيب القرآن الكريم:

أجمع العلماء سلفاً وخلفاً على أن ترتيب الآيات في السورة **توقيفي**، أي اتبع فيه الصحابة أمر النبي ﷺ، وتلقاه النبي ﷺ عن جبريل، لا يشبهه في ذلك أحد.

والأحاديث في إثبات **التوقيف** في ترتيب الآيات في السور كثيرة جداً تفوق حد التواتر، إلا أننا سنذكر أمثلة منها:

⁹ سورة: التوبة، الآية: 3.

¹⁰ سورة: البقرة، الآية: 248.

أخرج البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: قلت لعثمان: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾¹¹ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه.

وأخرج الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شَخَصَ ببصره ثم صَوَّبَهُ، ثم قال: " أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية في هذا الموضع: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾"¹² إلى آخرها.

5- ترتيب سور القرآن:

جماهير العلماء على أن ترتيب سور القرآن توقيفي، وليس باجتهاد من الصحابة.

والأدلة على أن ترتيب السور كلها توقيفي كثيرة جداً نذكر منها: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ﴿فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْكَهْفِ، وَمَرْيَمَ: إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأَوَّلِ، وَهِنَّ مِنْ تِلَادِي﴾¹³ ¹⁴، فذكر ابن مسعود السور نَسَقاً كما استقر ترتيبها. وقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعَ الطَّوَالَ وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزُّبُورِ الْمِئِينَ وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِائِي، وَفُضِّلَتْ بِالْمِقْصَلِ﴾¹⁵، قال أبو جعفر النحاس: وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه مؤلف من ذلك الوقت، وإنما جمع في المصحف على شيء واحد. ويشهد لذلك من حيث الدراية والعقل واقع الترتيب وطريقته، وذلك من وجهين لا يشك الناظر فيهما، أن الترتيب بين السور توقيفي: الأول: مما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاءً، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاءً، وأخرت طس عن القصص. الثاني: ما راعاه العلماء الأئمة في بحوثهم من التزام بيان أوجه التناسب بين كل سورة وما قبلها، وبيان وجه ترتيبها.

المراجع:

*/ مباحث في علوم القرآن لمناع القطان.

*/ علوم القرآن الكريم: نور الدين عتر.

*/ دراسات في علوم القرآن - فهد الرومي.

*/ مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني.

¹¹ سورة: البقرة، الآية: 234.

¹² سورة: النحل، الآية: 90.

¹³ مما حفظته قديماً، والتليد والتلاد والتالد: المتقدم.

¹⁴ رواه البخاري.

¹⁵ رواه أحمد والطبراني وأبي يعلى.